مجلة كلية الدعوة الإسلامية

العدد الثامن عشر
2001

مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة - محكمة تصدر سنويا

1369 من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم 2001 من ميلاد المسيح عليه السلام

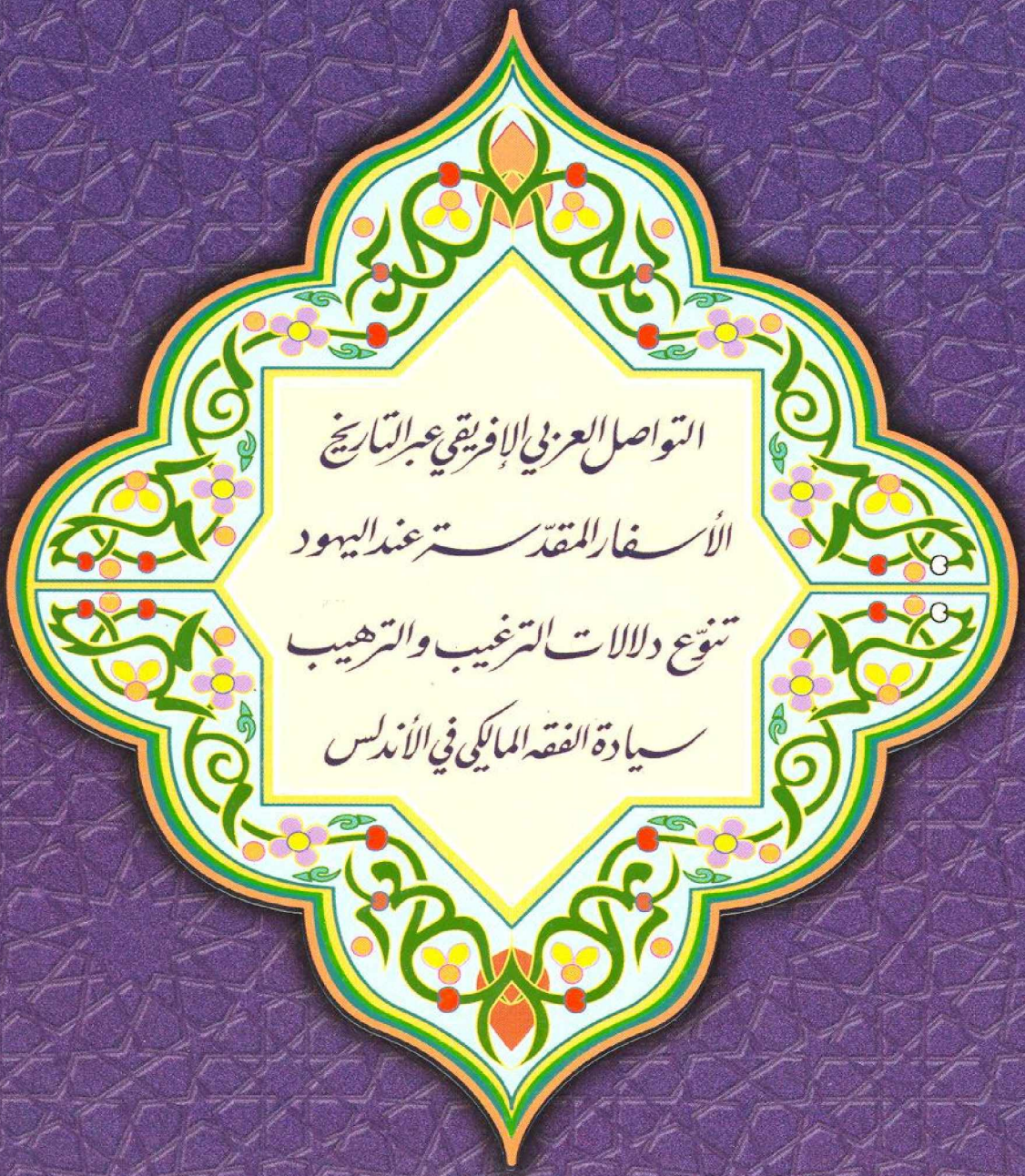

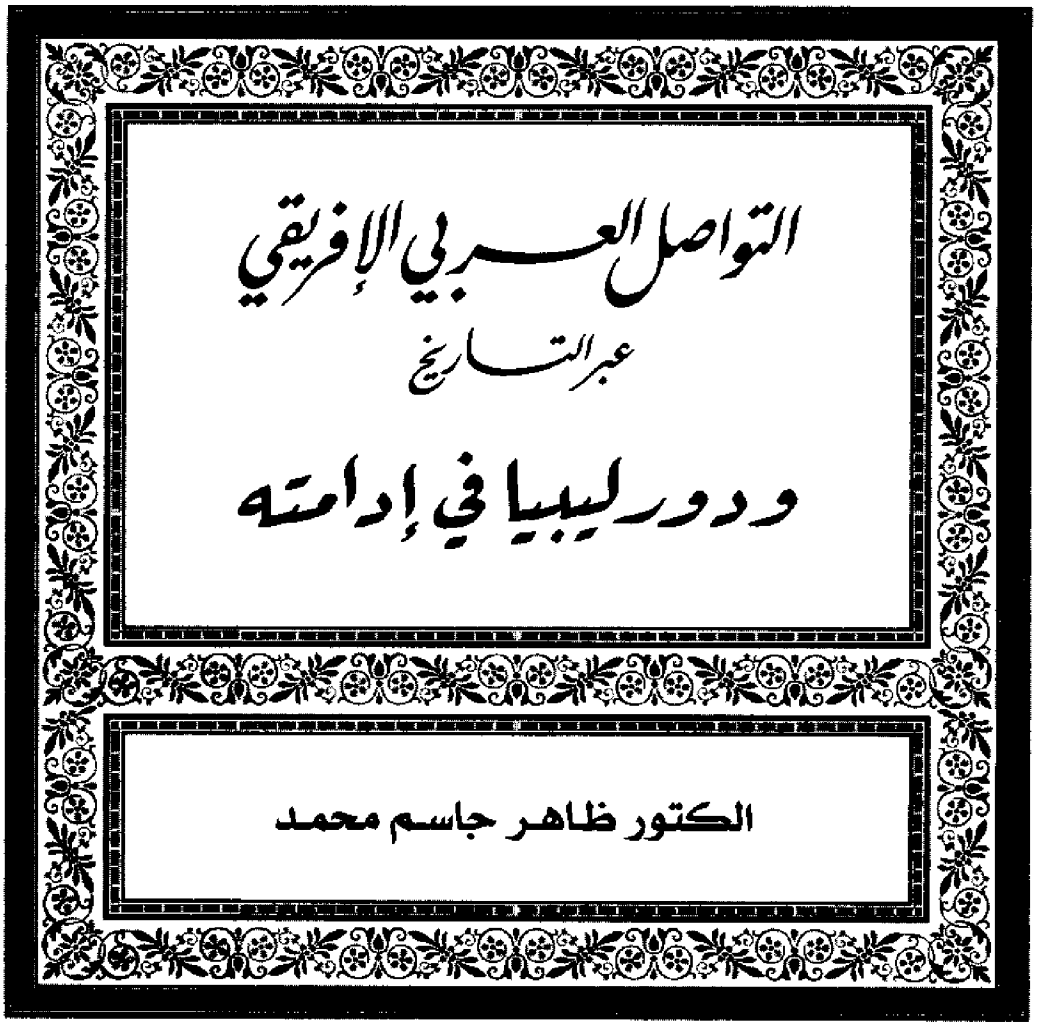

يهدف البحث إلى متابعة مراحل التواصل العربي ـ الأفريقي وانعكاساتها الحضارية؛ لوجود الروابط التاريخية والجغرافية والحدود المشتركة والتعايش والتمازج بين سكان المنطقتين، إضافة إلى ذلك وجود المعاناة المشتركة، بسبب التسلط الاستعماري الأوروبي؛ مما أدى إلى استنزاف الكتلتين اقتصادياً، سواء كان منها الموارد البشرية أو الموارد الطبيعية.

وكان لا بد أن يدور الحديث عن التواصل العربي ـ الأفريقي وليس العلاقات أو الروابط العربية ـ الأفريقية لأن مدلول كلمة روابط أو علاقات لا تفي بمعناها الحقيقي الموضوعي لتلك الروابط الأفريقية ـ العربية العميقة الجذور فكان الأولى أن تستبدل بهما كلمة تواصل لما تحمله من مضمون أو في تصوير الواقع.

وقد قُسم الموضوعُ إلى المراحل التالية: مرحلة التواصل قبل الإسلام، ومرحلة التواصل تحت راية الإسلام، ومن ثم مرحلة التواصل خلال فترة الغزو الأوروبي للقارة الأفريقية.

مرحلة التواصل العربي ـ الأفريقي قبل ظهور الإسلام:

لا تختلف معظم المصادر التاريخية حول العمق التاريخي لمراحل التواصل العربي ـ الأفريقي، لاسيما بعد التنقيبات الأثرية التي أخذت تتقدم كثيراً في العديد من البلدان الأفريقية وبالذات في بلاد أفريقيا ما وراء الصحراء.

لا بد من مناقشة أهم عوامل الربط بين الشعوب عموماً وبحثها، وفي المقدمة منها عاملي الجغرافية والتاريخ، بما لهما من ضرورات لا غنى عنها. والمعنى بالعامل الجغرافي، هو عامل التجاور الذي كان له الدور الواضح في خلق تداخل وتلاحم وثيق بين شعوب العالم أجمع، ومنها العالمين العربي والأفريقي، لاسيما في الأجزاء الشمالية والشرقية من القارة الأفريقية، فإن الذي يلقي نظرة على خريطة العالم السياسية سيتبين له أن البلاد العربية والبلاد الأفريقية تكونان معاً كتلة استراتيجية واحدة، يحدها شرقاً جبال زاجروس والخليج العربي. وشمالاً جبال طوروس والبحر المتوسط، وغرباً المحيط الأطلسي؛ وعلى الرغم من وجود الفاصل الانكساري الذي بموجبه تكوّن البحر الأحمر كفاصل بين اليابسة في آسيا وأفريقيا، استمر التواصل بين الطرفين العربي والأفريقي، والتي أصبحت تمثل العنصر العربي والأفريقي في آن واحد ومن دون حدوث تنافر بين المقومات العربية والأفريقية المنصهرة في حياة شعوبها، ويرجع ذلك إلى كون العروبة والأفريقية تشكلان رابطة حضارية وسياسية، وليست عنصرية أو عرقية، لهذا فإنه من الواضح لدينا أن كلاً من العروبة والأفريقية تضم في ثناياها شعوباً مختلفة من حيث العنصر والعرق[1].

---

(1) مدثر عبد الرحيم الطيب، التعاون العربي الأفريقي، العرب والنظام الاقتصادي الجديد، دار المشرق والمغرب، بيروت، 1983، ص106.

أمَّا العامل التاريخي لمراحل التواصل، فهو عامل الزمن، والذي يعود لعدة آلاف من السنين، وهذا ما عكس الصلة بين العرب والأفارقة في التشابه العرقي واللغوي والثقافي[2]. فالمصادر التاريخية تشير إلى أن الفينيقيين في القرن الخامس قبل الميلاد، قد أسسوا مستعمرات تجارية على الساحل الغربي لأفريقيا، وهم الذين وصفهم «هيرودوت» بأصحاب التجارة الخرساء أو التجارة الصامتة مع الأفارقة[3]. والذي يدعم وجود أسلوب التجارة الخرساء واستمرارها هو ما جاء من وصف دقيق لها في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي[4]. وشاهدنا على ذلك هو ما جاء في الرحلة المعروفة برحلة حنون، وهي ذلك التراث الفريد الذي نستقي منه معلوماتنا عن حضارة قرطاجة، وعلى الرغم من عدم وصول النص الأصلي إلا أن النسخة المترجمة باليونانية قد تمكنت من سد الفراغ، حيث كان هدف الرحلة، التي قام بها حنون على الشواطىء الأفريقية، لغرض مد السيطرة القرطاجية[5].

أما بالنسبة للساحل الشرقي، فالصلة هي الأخرى قديمة وعريقة، وتعود أيضاً إلى ما قبل التاريخ الميلادي، فلا بد من الإشارة إلى علاقة شعوب بلاد وادي الرافدين بالسواحل الشرقية لأفريقيا، إذ يشير الأثريون إلى العثور على نقوش سومرية وبابلية ترجع إلى عهد سرجون الأكدي، الذي حكم بلاد وادي الرافدين من عام 2350 ـ 2284 ق.م[6].

ولا يمكن لنا أن نغفل الآثار المصرية القديمة التي تحمل العديد من أخبار

---

(2) يوسف فضل حسن، دراسات في تاريخ السودان وأفريقيا وبلاد العرب، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، 1989، ج2، ص147.

(3) جوزيف ـ كي ـ زيربو، تاريخ أفريقيا السوداء، (ترجمة)، يوسف شلب الشام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1994، القسم الأول، ص135.

(4) ياقوت الحموي، كتاب معجم البلدان، طهران، 1965، م1، ص821 ـ 822.

(5) أ. غوتييه، ماضي شمال أفريقيا، (ترجمة)، هاشم الحسيني، الفرجاني، طرابلس، ليبيا، 1970، ص30.

(6) صالح حامد أحمد مطر، «تطور العلاقات الأفريقية العربية في الصعور القديمة ـ الوسطى ـ الحديثة»، مجلة الدراسات الأفريقية، العدد: 4، السنة: 4، ديسمبر 1991، ص41.

القوافل التجارية مع أواسط وشرق أفريقيا، وبصورة خاصة في عهد الأسرة الخامسة (2750 ـ 2625 ق.م)، ومنها في عهد الملك ساحورعَ، هو أول ملك أثبتت آثاره أنه مؤسس المواصلات البحرية مع الصومال[7]. وتعددت العلاقات بين الطرفين آنذاك البلدان الواقعة على حوض النيل إلى الصومال وشرق أفريقيا وغربها، ولم يكن هذا غريباً لأن مصر تعد من المنافذ الرئيسية للهجرات العربية إلى القارة الأفريقية[8].

ويبدو أن عراقة الصلة بين العرب والأفارقة، قد انعكست على التشابه العرقي واللغوي والثقافي بين الشعوب التي تتكلم اللغة الحامية أو الكوشية، والشعوب الناطقة باللغات السامية، العربية والأمهرية والتقري، وتنتشر المجموعات الناطقة باللغات الحامية على الساحل الشرقي والشمالي لأفريقيا، وتتكون من الصومال والعفار وجزء من الإريتريين «والبجة والنوبيين والبربر»[9]، وإن هذا التشابه والصلات تدل من دون أدنى شك على عمق التبادل الثقافي بين المجموعتين، مما دفع بعض الباحثين إلى التنبؤ بأن تكون المجموعتان من أصل واحد أو عاشتا في موضع واحد، فلو صح هذا التنبؤ فذلك يعني من الجانب الآخر صحة مدى ما ذهب إليه هؤلاء الباحثون بانشقاق الأرض وظهور البحر الأحمر.

ويعتقد المختصون أنه بسبب الجوار الجغرافي، وما يولده من احتكاك تجاري وثقافي، بين شعوب المنطقتين المتجاورتين ـ أي موقع الجزيرة العربية المقابل لشرق وشمال شرق أفريقيا ـ والذي لا يفصل بينهما إلا البحر الأحمر،

---

(7) جيمس هنري بستد، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، (ترجمة)، حسن كمال، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1996، ص83. عبد المنعم أبو بكر، «مصر الفرعونية»، تاريخ أفريقيا العام، م2، (اليونسكو)، 1985، ص84.

(8) انظر: شيخ أنتاديوب، الأصول الزنجية للحضارة المصرية، ترجمة حليم طوسون، دار العالم الثالث، القاهرة، 1995. ولنفس المؤلف انظر: أصل المصريين القدماء، تاريخ أفريقيا العام، م2، 1985، ص37 ـ 70.

(9) حسن، ص147.

حدثت هجرات عربية نحو قارة أفريقيا وبالعكس، على الأرجح، قبل القرن الرابع قبل الميلاد[10]، عن طريق شبه جزيرة سيناء وبرزخ السويس شمالاً، وعن طريق باب المندب جنوباً، لاسيما وأن «. . . اليمن كانت إلى فترة جيولوجية غير بعيدة متصلة بأفريقيا حين كان البحر الأحمر بحيرة داخلية كبيرة. .»[11]، وأن مبررات تلك الهجرات تعود إلى حالات الجفاف والقحط التي مست الجزيرة العربية لعصور متتالية، فبحثا عن متطلبات العيش، انتقلت عدة قبائل عربية إلى الأرض الأفريقية لتستقر هناك[12]؛ فضلاً عن رحلات قوافل التبادل التجاري والتي كانت مزدهرة. وإن أقدم إشارة خطية أشارت إلى صلة العرب بتلك المنطقة هو ما جاء في كتاب تاجر يوناني من الاسكندرية، في أواخر القرن الأول الميلادي، باسم Erythraerel Periblus Maris الدليل الملاحي للبحر الإريتري ـ ليكون دليلاً للتجار في المنطقة ـ أشار فيه إلى مدن عدة مثل مدينة ربطة، التي يحكمها حاكم عربي ينتسب إلى قبيلة معافر اليمنية، ويخضع بنفس الوقت، إلى مدينة مخا في اليمن. وتحدّث فيه عن تزاوج العرب من الأفريقيات، وعن العلاقات التي كانت قائمة بين سكان الجزيرة العربية وشرق أفريقيا، والسفن التي كانت تأتي من الجزيرة العربية محملة بالخناجر والرماح والزجاج وتعود إليها محملة بالعاج وقرن الخرتيت والجلود والرقيق[13]. وإنه مثلما كانت سواحل شرق أفريقيا مراكز تجمع للهجرات العربية منذ العصور القديمة، كانت مصر البوابة الشمالية التي يدخل منها العرب إلى شمال القارة.

---

(10) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب قبل الإسلام، ج1، مؤسسة شباب الجامعة. (د.ت)، ص120.

(11) دي مورجان، الشرق قبيل التاريخ، ج1، نقلاً عن دي لاسي أوليري، جزيرة العرب قبل البعثة، (ترجمة وتعليق)، موسى علي الغول، منشورات وزارة الثقافة، المملكة الأردنية الهاشمية. عمان، 1990، ص25.

(12) أوليري، ص25.

(13) Periplus of the Erythraean Sea, New York, 1912.

نقلاً عن د. أمين توفيق الطيبي، الحبشة عربية الأصول والثقافة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، 1993، ص143 ـ 144.

ويعد وقوع اليمن تحت حكم الأحباش في القرنين الرابع والسادس الميلاديين سببا في النزوح الأفريقي إلى الجزيرة العربية، ويؤخذ به مثالاً للتواصل بالاتجاه المعاكس، وعلى الرغم من ارتباط ذلك بعوامل تجارية وعسكرية، فلا زالت آثار هذا التواصل موجودة إلى الآن[14]، فضلاً عما دوَّنه الأصفهاني وابن خلدون في كتابيهما من أخبار حول استقرار العرب في الحبشة والأحباش في الحجاز لمزاولة التجارة، حيث كانت أرض الحبشة لقريش «متجراً ووجهاً»[15] وكانوا «يتعاهدونها بالتجارة فيحمدونها»[16].

وكذلك تشير المصادر إلى أن بعض القبائل العربية قد هاجرت من اليمن إلى شرق أفريقيا عن طريق باب المندب، ولم تكن هذه الهجرات إلى الساحل الشرقي فحسب بل كانت تمثل مجالاً للاحتكاك الأول؛ حيث امتدت العلاقات إلى الداخل من خلال موجات المهاجرين التي استمرت تتحرك باتجاه الغرب الأفريقي، حتى استقرت في بلاد اليوروبا غربي نيجريا، ونفذت جنوباً عن طريق بحر العرب والمحيط الهندي إلى جزيرة زنجبار وسواحل كينيا وتنجانيقيا، وتوغلت إلى جبال القمر، وهضبة البحيرات، ثم إلى خط تقسيم المياه بين نهري النيل والكونغو[17].

يتضح مما تقدم، أن مرحلة التواصل الأولى قديمة وتمتد إلى آلاف السنين، متأثرة بعوامل عديدة منها: عامل الجوار، والاقتصاد، والثقافة، وهي التي كونت الأسس المتينة لمراحل التواصل بين العرب والأفارقة مع بلاد ما وراء الصحراء في العصور اللاحقة.

---

(14) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، مؤسسة عز الدين للنشر، بيروت 1985، م1، ج2، ص380 ـ 394.

(15) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، مؤسسة عز الدين، بيروت، (د.ت)، ج8، ص52.

(16) ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1971، ج2، ص8.

(17) محمد المبروك يونس، تاريخ التطور السياسي للعلاقات العربية الأفريقية، 1955 ـ 1977، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، ط2، ص15.

مرحلة التواصل تحت راية الإسلام:

يعدّ ظهور الإسلام في العقد الثاني من القرن السابع الميلادي بداية مرحلة جديدة في تاريخ التواصل العربي ـ الأفريقي، فهناك آراء متعددة حول تاريخ دخول الإسلام إلى أفريقيا مبكراً، فمنهم من يعد هجرة أتباع الرسول ـ ﷺ ـ إلى الحبشة[18]، في بداية الدعوة، أول اتصال مباشر وتأسيس أول خلية للإسلام بأفريقيا. ومنهم من يرى أن سواحل أفريقيا الشرقية تأثرت بالدين الإسلامي في الوقت نفسه الذي بدأ الإسلام يرسي كيانه في الجزيرة العربية، وذلك بسبب القرب الشديد بين شرق أفريقيا وبلاد العرب[19]. ويشير البروفيسور رجبي، إلى أن شرق أفريقيا قد تأثر بالإسلام منذ القرن السابع الميلادي (الأول الهجري)، وأن المسلمين قد بنوا ميناء مقديشو وغيره من الموانىء على الساحل الصومالي بعد الهجرة عام 622م مباشرة[20]. يؤيد هذا ما ذكره الدكتور أمين الطيبي في وثيقة مكتشفة حديثاً (كتاب الزنوج) لمؤلف مجهول، عن حدوث هجرات عربية عديدة وقيام مستوطنات قديمة، وعن دخول الإسلام إلى شرق أفريقيا في زمن الخليفة عمر بن الخطاب، فضلاً عن ظهور إمارات عربية زمن الدولة العباسية[21].

مهما يكن الأمر بعد دخول الإسلام إلى الشمال الأفريقي، تعاقبت هجرة القبائل العربية إلى المنطقة، وأظهر العرب أن هناك خصائص فريدة في التأثير على المجاميع التي سكنت معها، وبرز عدد من القادة المسلمين كان لهم الدور الكبير في نشر الدين الإسلامي في أفريقيا، فأسهموا في ترسيخ أسس العقيدة

---

(18) الطبري، م1، ج2، ص482 ـ 483، ابن خلدون، ج6، ص199.

(19) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (تحقيق)، محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، 1988، ج2، ص19.

(20) أحمد الجبير، العلاقات العربية الأفريقية، منشورات الجامعة المفتوحة، طرابلس، 1992، ص13.

(21) كتاب الزنوج، ص249، نقلاً عن الطيبي، ص143.

الإسلامية حتى بدأ مواطنون أفارقة يدعون إلى الإسلام بين مواطنيهم في حركة سلمية.

على الرغم من عامل الجوار والعامل التجاري لهجرة القبائل العربية إلى أفريقيا، وما ترتب عليها من علاقات تجارية وتلاقح اجتماعي، كانت النزاعات القبلية والسياسية التي قادها الأمويون والعباسيون ضد معارضيهم، سبباً مهماً في هجرة مجموعات أخرى كبيرة من القبائل العربية إلى القارة الأفريقية عن طريق باب المندب، ومن ثم الانتشار في الساحل الشرقي منها[22]، وكان لاستقرار هذه الهجرات في مناطق مختلفة من الساحل سبب رئيسي في ظهور عدد من الإمارات العربية على الساحل وبصورة خاصة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، في كلوه وممبسه ومقديشو وفي جزيرة زنجبار[23].

ولا يفوتنا التنويه إلى أن الجغرافيين العرب، في العصور الوسطى، هم أول من أطلق اسم ساحل الزنج على ساحل أفريقيا الشرقي، وبالذات المنطقة التي استقر بها العرب على الساحل الشرقي، من مقديشو في الشمال إلى مدينة سفالا في موزمبيق.

ونتيجة لهذه الهجرات، ظهر مجتمع خليط أطلق عليه الأمة السواحيلية والذي ضم العرق المحلي المكون من سكان يتحدثون بلغة البانتو مع العناصر القادمة من الساحل الشمالي لبحر العرب والمحيط الهندي، وكان من بينهم العرب والفرس والهنود[24]. وطغى هذا الاختلاط حتى شمل اللغة التي هي الأخرى سميت باللغة السواحيلية، حيث أصبحت لغة المعاملات التجارية والرسمية على طول الساحل الشرقي وكانت تكتب بالأبجدية العربية حتى منتصف القرن التاسع عشر.

---

(22) J.S. Trimigham, The Inflounceof Islam Upon Africa, Longman, London, 1988, p.38.

(23) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1992، ص270 ـ 274.

(24) ف. ف. ما تفييف، «تطور الحضارة السواحيلية»، في تاريخ أفريقيا العام، م4، ص452.

وبسبب البعد الجغرافي عن مراكز الثقافة العربية، استغرق دخول الإسلام إلى أفريقيا الغربية زمناً أطول، وقد وجد عدد من الرحالة والمؤرخين العرب وغيرهم من أمثال العمري والإدريسي وابن بطوطة وليون الأفريقي، حضارة إسلامية زاهرة في ممالك غانا ومالي وغيرها.

وقد أحدث العرب تأثيراً جذرياً وعميقاً في أنحاء مختلفة من القارة الأفريقية منذ وصولهم إليها في القرن السابع الميلادي، لاسيما أنهم أدخلوا إلى القارة الإسلام وفن العمارة العربية، والثقافة الإسلامية، وعموماً زادت وشائج الاتصال العربي الأفريقي منذ انبلاج الدعوة الإسلامية ليصبح الإسلام الركيزة الأساسية للثقافة العربية الأفريقية.

لقد سلك العرب في نشر الدعوة الإسلامية في أنحاء مختلفة من أفريقيا، الطرق نفسها التي سلكها أجدادهم من قبل في التجارة أو الهجرة؛ وأن التطور الذي حصل في حياة العرب أدى إلى حدوث نقلة نوعية في تاريخ العلاقات الثقافية بين العرب والأفارقة، فساعد ذلك على رواج مظاهر الثقافة العربية؛ كاللغة التي أعطتها محتوى لغوياً وثقافياً في حين أعطاها الإسلام بعداً عقائدياً[25].

وبعد أن استقر العرب في الشمال الأفريقي منذ القرن الثامن الميلادي، أخذت القبائل العربية تنساب نحو الجنوب، فوصلت إلى حدود النيجر والسنغال، واختلطوا بالسكان وأخذوا يقيمون الإمارات العربية الإسلامية. ولم تقف الصحراء الكبرى حاجزاً لمنع قيام علاقات الترابط ومد جسور التلاقي بين سكان المغرب العربي وبلاد ما وراء الصحراء، حيث مهدت هذه الجسور لاحقاً لانتشار الإسلام في مناطق غرب أفريقيا ووسطها وبالذات أثر سقوط مملكة غانا على أيدي المرابطين عام 1076م، فقامت ممالك أفريقية وبلغت شأناً من الازدهار نتيجة لاعتناقها الإسلام، وتأثرها بمظاهر الحضارة العربية[26].

---

(25) حسن، ص148.

(26) دنيز بولم، الحضارات الأفريقية، (ترجمة)، نسيم نصار، منشورات عويدات، بيروت، 1978، ص64 ـ 65.

ومن الممالك التي برزت في الغرب الأفريقي ووسطه هي مملكة غانا ومملكة مالي وسنغاي والكانم والبورنو. . الخ[27]. لم تصل هذه الممالك إلى التقدم والازدهار والمنعة إلا بعد أن أصبح الإسلام عصب قوتها الروحية والمادية، وأصبحت اللغة العربية لغتها الرسمية. لاسيما وأنها انتقلت من مجتمعاتها القبيلة إلى مجتمع الدولة المركزية، وظهرت دولة جديدة امتزجت بها النظم العربية الإسلامية مع التقاليد الأفريقية الموروثة، وقاد هذا إلى بروز الشخصية الأفريقية في إطارها الإسلامي من دون ذوبان الشخصية، بل ذهب البعض إلى القول أنه بدخول الإسلام بدأ العصر التاريخي «لأفريقيا السوداء»[28]. وشواهدنا التاريخية على ذلك كثيرة في الممالك الأفريقية التي كانت قد أكدت حرصها على التشبه بالقوى الإسلامية المعاصرة، من حيث نظم الحكم والقضاء والاستعانة بعلماء الدين وفقهائه والانتساب إلى الأصول العربية، بل مارس البعض منهم الجهاد في سبيل الإسلام وأعمال الخير مثل محمدي سلطان كانم[29].

وفي القرن العاشر الميلادي ظهرت العديد من المدن والمراكز في شرق أفريقيا، لاسيما عند مغادرة البحارة والتجار من عمان وصحار وساحل الخليج العربي عموماً واستقروا في هذه المنطقة، وكان من مرافقيهم المؤرخ المسعودي، صاحب كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، والذي أورد في كتابه[30]، وصفا عن المحيط الهندي والقرن الأفريقي وبلاد الواق واق المشتهرة بالذهب والعاج.

شهدت أفريقيا تطوراً كبيراً خلال المدة ما بين القرن الحادي عشر وحتى

---

(27) انظر: محمد عبد العال أحمد، منسا موسى سلطان التكرور ورحلة حجه الشهيرة، مركز الدلتا للطباعة، القاهرة، ص5 ـ 8.

(28) يونس، ص17.

Gouilly, A,L Islam dans L Arrique Occidentale Francaise (Paris, 1952), p.45.

(29) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، (تحقيق)، إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، 1970، ط1، ص95.

(30) المسعودي، ج1، ص108 ـ 112، وكذلك ج2، ص6.

القرن الرابع عشر، فاستطاعت وبالتعاون مع العرب صنع حضارة عربية أفريقية، ومن تأسيس مدن وإمارات ذات إشعاع فكري وثقافي استمدت أصولها من مراكز الإشعاع العربي في بغداد والحجاز والقاهرة، وذلك بسبب الهجرات العديدة التي حدثت إلى مناطق الساحل الشرقي الأفريقي بعد الضعف الذي دب في صفوف الدولة العباسية وسيطرة الأقوام الأجنبية عليها، لا سيما بعد الغزو المغولي لبغداد وإسقاط الخلافة العباسية فيها، حيث وصلت هذه المنطقة إلى درجة كبيرة من الازدهار والترف والرفاهية[31].

وطبيعي أن تنعكس حالات الانتعاش أو التخلف التي كانت تعيشها البلاد العربية على الحالة التي عاشتها أفريقيا، ففي الوقت الذي سيطر العرب فيه على الملاحة في البحر الأحمر والمحيط الهندي، كان له الأثر الكبير على انتعاش التجارة والثقافة وازدهارهما في أفريقيا.

وقد انتشر العنصر العربي في أواخر القرن الحادي عشر في المنطقة الممتدة بين دار فور وبحيرة تشاد وكانم وبورنو وواداي، ويؤكد ديتربولم في كتابه الحضارات الأفريقية مشيراً إلى سكان هذه الممالك قائلاً أن «هؤلاء قبائل عربية ومستعربة من واداي ودار فور وكردفان»[32]. ويطلق عليهم كلمة الشوا، أي الرعاة الرحل لغرض تفريقهم عن الوسلي أي الجلابة أو التجار غير المقيمين؛ ويذكر أن أبرز بطون قبائل الشوا هم الحساونة وجهينه والسلامات وخزام وأولاد راشد والمسيرية[33].

ويمكننا تقسيم مراحل توغل النفوذ العربي الإسلامي إلى داخل مناطق بلاد ما وراء الصحراء الأفريقية الكبرى إلى المراحل التالية:

---

(31) الجبير، ص14؛ حول ممارسة العرب للنشاط التجاري في سوفالا بموزمبيق وزمبابوي، انظر: والتر رودني، أوروبا والتخلف في أفريقيا، (ترجمة)، أحمد القصير، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1988، ص101 ـ 102.

(32) بولم، ص27.

(33) لمزيد من المعلومات حول عرب الشوا، انظر: رحلة عبر أفريقيا، مشاهدات الرحالة الألماني رولفس في ليبيا وبرنو وخليج غينيا 1865 ـ 1967، (دراسة وترجمة)، عماد الدين غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، 1996، ص488 ـ 490.

1 ـ المرحلة الأولى: ويغلب عليها الاحتكاك السلمي، والتي شكل التجار العرب دعامتها.

2 ـ المرحلة الثانية: التي غطى عليها الجهاد المرابطي الذي مد الوجود العربي الإسلامي المتنامي اقتصادياً وثقافياً، دعماً وسنداً سياسياً.

3 ـ المرحلة الثالثة: التي جمعت بين السلم والجهاد، والتي تم أثناءها ترسيخ مفاهيم العقيدة الإسلامية وتعميقها بين المواطنين الأفارقة. وفي هذه المرحلة انتقلت الزعامة الدينية والسياسية والاقتصادية إلى أبناء الوطن بعد أن تشبعوا بروح الإسلام، وكان نتيجة ذلك قيام عدد من الممالك الإسلامية التي مر ذكرها، مثل مالي وسنغاي وإمارات الهوسا، في المدة المحصورة ما بين القرن الثالث عشر والقرن السابع عشر الميلادي.

ومجمل القول، فقد ارتبط دخول العرب إلى القارة الأفريقية بصورة عامة بأوضاع الدول التي كانت تحكم بالشمال الأفريقي أو الممالك التي تأسست في شرق أفريقيا، وبسبب اختلاط العرب المسلمين وتزاوجهم بسكان قارة أفريقيا من «القبط، والنوبة، والبربر، والزنوج، والبانتو...»، تولدت شعوب إسلامية مختلفة الأعراق والألوان، استعرب بعضها بسبب إسلامها استعراباً تاماً، وشكلت جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية الحديثة، بينما استمرت أقوام أخرى محافظة على ثقافتها القديمة، فكان الإسلام وما زال، من عوامل الترابط بين الشعوب العربية والأفريقية دينياً وعرقياً وحضارياً[34].

ازدهار التواصل العربي الأفريقي:

ازدهرت العلاقات العربية الأفريقية في جميع المجالات، ففي المجال الاقتصادي، أدى التجار العرب في بلاد المغرب دوراً مهماً في تمتين الصلات التجارية بين الممالك الأفريقية القائمة في غرب القارة ووسطها من ناحية، وبين

(34) ج. ت. نياني، «مالي والتوسع الثاني للماندنغ»، تاريخ أفريقيا العام، (اليونسكو)، بيروت 1988، م4، ص131؛ حسن، ص160.

مناطق البحر الأبيض المتوسط والبلدان الأوروبية من ناحية أخرى[35]، وبنفس الدور قام التجار العرب في تمتين الصلات بين موانىء ساحل شرق أفريقيا وبلاد الصين[36]. هذا فضلاً عن المناصب الإدارية العليا التي شغلها هؤلاء التجار في القارة من أجل إدارة تلك الممالك وما تمتعوا به من امتيازات وضمانات كثيرة وعديدة[37].

أما في المجال الثقافي والاجتماعي فقد ازدهرت الممالك الإسلامية في وسط السودان وغرب أفريقيا التي غلب عليها مظاهر الحضارة الإسلامية الأفريقية، والتي جمعت في نظمها الإدارية نظماً إسلامية وأنماطاً أفريقية غلبت عليها الثقافة العربية. وبتأثير الإسلام ساد التسامح في مجتمعاتها، وأصبحت اللغة العربية لغة العبادة والعلوم والتجارة والدبلوماسية[38]، وأصبح الحرف العربي هو الحرف المهيمن في كتابة اللغات الأفريقية، كلغة الهوسا واللغة الفولانية، وكثيراً ما تأثر سلاطينهم بالخلفاء والولاة المسلمين، فكانوا يخرجون في مواكب جامعة لأداء فريضة الحج، كما شجعوا على تبادل المؤلفات والبعثات العلمية مع مدارس فاس ومكة والقاهرة[39]، ومن أمثلة ذلك ازدياد عدد طلبة العلم من غرب أفريقيا الوافدين إلى مصر، حتى أصبح لهم رواق خاص باسمهم هو رواق التكرور، وذاع صيت عدد من العلماء الذين احتلوا مكانة مرموقة عند سلاطين السودان[40]. هذا فضلاً عن ظهور عدد من المراكز

---

(35) إبراهيم الحيدري، صورة الشرق في عيون الغرب، دار الساقي، بيروت ـ لندن، 1996، ص10 ـ 11.

(36) المسعودي، ج2، ص6.

(37) يونس، ص19.

(38) J.S. Trimingham, Islam In West Africa, Oxford University Press, 1959, p.126.

(39) حسن، ص160.

(40) أحمد إبراهيم دياب، الاستعمار الأوروبي ونتائجه على العلاقات العربية ـ الأفريقية، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطة، 1991، ص160.

(41) لمزيد من المعلومات انظر: محمد عبد الرحمن سوالمية، تمبكتو جوهرة تغمرها الرمال، مطبعة المتوسط، بيروت، ص18.

الثقافية مثل، جني وكانم وتمبكتو[41]، التي ـ ربما بشيء من المبالغة ـ قال عنها السعدي «إنها ما دنستها عبادة الأوثان وما سجد على أرضها قط لغير الرحمن»، فأصبحت هذه المراكز موطناً لطلاب العلم الوافدين إليها وقبلة للعلماء القادمين من مراكز الثقافة العربية الإسلامية من المغاربة والأندلسيين والمصريين والحجازيين، حضروا للتدريس فيها، إضافة إلى طلاب العلم من السودان والسنغال والنيجر وإمارات الهوسا وبورنو وكانم ودار فور[42].

ومن المظاهر الأخرى للتواصل مع جنوب الصحراء ازدهار طرق القوافل التجارية، التي كانت هي الأخرى وسيلة فعالة في نقل الثقافة العربية الإسلامية من طرابلس وتونس وتلمسان ومراكش إلى مدن تمبكتو والكانم وبورنو وإمارات الهوسا وغيرها من المراكز التجارية[43]، التي اشتهرت أسواقها بالبضائع التي كانت تأتيها من الشمال الأفريقي مثل الحرير والسروج والنحاس والملح والبضائع الأفريقية كالذهب والعاج والجلود، ومن الطرق التجارية الرئيسة التي تمر عبر الصحراء وتربط بين شمالها وجنوبها هي:

1 ـ طريق سلجماسة: ولاته ومنه إلى السنغال وأعالي نهر النيجر.

2 ـ طريق غدا مس: بلاد الهوسا عن طريق غات وأهير.

3 ـ طريق طرابلس: بورنو ونهر تشاد مارا بفزان وكوار.

4 ـ طريق برقة: واداي عن طريق الكفرة[44].

وعلى الرغم من هذا التحديد للطرق، إلا أن هذا لا ينفي وجود طرق

---

(42) عبد الرحمن بن عبد الله السعدي، تاريخ السودان، باريس، 1898، ص21، وانظر كذلك، القاضي محمود كعت، تاريخ افتاش في أخبار الجيوش وأكابر الناس، باريس، 1913، ص18.

(43) حول المراكز التجارية على الجانبين الشمالي والجنوبي للصحراء الكبرى انظر: أمطير سعد غيث، التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي، طرابلس، دار الرواد، 1996، ص127 ـ 135.

(44) هانس فايس، «الصحراء الكبرى في ضوء التاريخ»، ترجمة، مكاييل محرز، في الصحراء الكبرى، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، (د.ت)، ص 183 ـ 184. زيربو، ق1، ص37.

صحراوية أخرى لم يظهر لها تسجيل في المصادر التاريخية والجغرافية[45].

والنقطة الهامة التي يجب الانتباه إليها هو وجود الصحراء الأفريقية الكبرى، والتي حاول الأوروبيون أن يجعلوا منها حاجزاً مانعاً للفصل بين شمال القارة وجنوبها، وفي الحقيقة، وإن كانت الصحراء قاحلة، منذ مدة لم تكن بعيدة، إلا أنها لم تكن حاجزاً بين هذه الشعوب، فضلاً عن أن هذه الصحراء لم تكن خالية من السكان، حيث تقطن شعوب متعددة فيها تعيش حياة البداوة والترحال، وهم سادة الصحراء وأدلائها، ويقيمون علاقات وطيدة مع سكان المدن في شمال الصحراء وجنوبها[46]. وظلت هذه الصحراء من القرن الحادي عشر حتى القرن الخامس عشر، منطقة عبور جيدة لهذه الشعوب. وخير من وصف لنا رحلة الصحراء؛ الرحالة العربي ابن بطوطة الذي قال وهو يصف رحلته: وعند وصولنا إلى سجلماسة، ملتقى جميع من ينطلق من الغرب الأقصى نحو الجنوب «واشتريت بها الجمال، وعلفتها أربعة أشهر»[47]، وأما القافلة فكانت توضع تحت إمرة قائد، كما هو ربان السفينة، وعند انطلاق القافلة فلا يحق لأحد التأخر أو التقدم خشية من فقدان الطريق، وقبل أن تصل القافلة إلى المدينة المعينة بعشرة أيام، ترسل مبعوثها إلى المدينة المقصودة فيحمل الرسائل إلى أصحابها «ليكتروا لهم الدور ويخرجوا للقائهم بالماء على مسيرة أربع»[48]. ويشير ابن بطوطة أيضاً إلى الإجراءات الجمركية التي تخضع لها القوافل. وهذا كله مدعاة لزيادة أهمية المراعي الكبرى المخصصة لعلف الجمال وتربيتها، ومثار للتراع عليها بين القبائل أيضاً. وعلى الرغم من إيجابيات الصحراء الكبرى إلا أنها لا تخلو من المخاطر التي كان صالحة للرعي، إلا أنها لا تخلو أيضاً من مناطق جبلية وكثبان رملية عالية ثابتة ومتحركة وهضاب قد

(45) ك. مادهو بانيكار، الوثنية والإسلام، (ترجمة)، أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة ـ المشروع القومي للترجمة، 1998، ط2، ص379.

(46) نقولا زيادة، «سكان الصحراء الكبرى والسودان الغربي»، الفكر العربي، عدد 51، حزيران 1988، ص49.

(47) رحلة ابن بطوطة، بيروت، دار صادر، (د.ت)، ص673.

(48) المصدر نفسه، ص675.

عرت عوامل التعرية صخورها، هذا فضلاً عن العطش وما يسببه من تشقق في الجلد.

دور ليبيا في ازدهار تجارة الصحراء:

ليبيا بحكم موقعها الجغرافي، قامت بإنعاش التجارة بين المناطق الأفريقية باتجاه الشرق والغرب والوسط وجزر البحر الأبيض المتوسط، وعموماً مثلت مراكز التجمع في الأراضي الليبية من موانىء وواحات الصحراء، محطات تجمع للقوافل التجارية المتحركة بين مناطق المغرب العربي والبلاد الأفريقية لتبادل البضائع[49].

ونجد كذلك أن تجار طرابلس وغدامس وأوجله وفزان وجبل نفوسة[50]، قد احتفظوا لأنفسهم بمكانة مرموقة في تمبكتو، نتيجة للدور التجاري الذي قاموا به، لاسيما وأن الجالية الغدامسية كانت تتمتع بنفوذ كبير فيها، حتى أصبح لها حي خاص بهذه المدينة. ويمكن أن نسوق مثلاً آخر على عمق الصلات التجارية: ففي جبل نفوسة المرتبط بتجارة بلاد ما وراء الصحراء التي كانت تنطلق من طرابلس نحو المراكز التجارية الأفريقية عبر مدينة جادو، يذكر لنا البكري أن سكانها يجيدون التحدث باللغة الكانمية إلى جانب اللغة العربية، وأن الذي دعم هذا الدليل هو وجود جماعات أفريقية من كانم مستقرة في أجناون الواقعة أسفل مدينة جادو على ممر القوافل القادمة من غرب أفريقيا ووسطها[51].

وكما هو واضح قدم العلاقات الليبية الأفريقية بمختلف الجوانب الحياتية: السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأن قوة هذا وقدمه يعود لأحد الأسباب الرئيسية هو عامل الترابط الجغرافي الليبي الأفريقي، والذي جعل من ليبيا

---

(49) لمزيد من المعلومات انظر: أحمد سعيد الفيتوري، ليبيا وتجارة القوافل، الإدارة العامة للآثار، 1972.

(50) ابن حوقل، كتاب صورة الأرض، دار صادر (عن طبعة لندن، 1939)، ط1، ج1 ـ 2، ص67 و94.

(51) يونس، ص21 ـ 22.

الواجهة الرئيسة المتقدمة باتجاه أوروبا. وأن هذه العلاقات شهدت تطوراً كبيراً في مختلف النواحي بعد قيام ثورة الفاتح من سبتمبر 1969، إدراكاً للبعد الاستراتيجي الذي تشكله القارة الأفريقية، فكان اهتمام الثورة بالتوجه نحو أفريقيا قد أسهم في تحريك العلاقات التي لم تنقطع في جميع مراحل التواصل والتعاون العربي ـ الأفريقي بفضل انتشار الإسلام، وفي هذا الجانب تميز الاهتمام ببناء المراكز الإسلامية والمدارس القرآنية لنشر تعاليم الشريعة الإسلامية، مع التركيز على المناطق التي في القارة، مهددة بالتبشير المسيحي، ومن الإسهامات البارزة، هو العمل على تأسيس هيئة إسلامية للقيام بمهمة توفير الدعاة والمدرسين، فضلاً عن الأعمال الخيرية الأخرى، لنشر الإسلام، ألا وهي جمعية الدعوة الإسلامية العالمية بقرار رقم 58 لسنة 1972ف[52].

وقد أثمرت جهود ليبيا في ازدياد حركة انتشار الإسلام في القارة الأفريقية لاسيما أن عدد الداخلين في الدين الإسلامي، على يد دعاة جمعية الدعوة الإسلامية، قد بلغ ستمائة وسبعون شخصاً للمدة من عام 1972 ـ 1977، فضلاً عن إعلان إسلام رئيسي دولتي الغابون (السيد يونجو) وأفريقيا الوسطى (السيد جان بوكاسا)، مما يعيد للأذهان مرحلة إشهار ملوك أفريقيا الغربية إسلامهم مثل منسي موسى والأسكيا محمد، وتحول هذه المنطقة إلى مركز حضاري تشع منه الثقافة العربية والإسلامية[53].

والنقطة الهامة التي يجب الإشارة إليها، هو أن العرب الأوائل، من التجار والبدو المهاجرين، بأعداد كبيرة، لم يدخلوا إلى القارة كدعاة متفرغين للدعوة الإسلامية فحسب، بل صاحب ذلك نشر اللغة والثقافة العربية الإسلامية، لذا وجدت قبل التسلط الأوروبي الاستعماري على ما وراء الصحراء الكبرى، اللغة العربية قد فرضت نفسها فأصبحت لغة العبادة والثقافة في هذه البلاد، فضلاً عن كونها لغة التجارة والمكاتبات الرسمية، فهي إذن مَعلَم من معالم التواصل

---

(52) د. محمد الزيادي، «العمل العربي والإسلامي في أفريقيا ـ جمعية الدعوة الإسلامية العالمية (نموذجاً)»، في ندوة العلاقات العربية الإفريقية، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، 1998.

(53) يونس، ص101 ـ 102.

العربي الأفريقي في هذه المرحلة من التاريخ قبل أن يصلها المستعمر الأوروبي.

مرحلة التواصل أثناء الغزو الأوروبي للقارة:

منذ القرن الخامس عشر دخلت القارة الأفريقية عهداً تاريخياً جديداً لم تشهده من قبل، هو مقدم الأوروبيين إليها، ونعني بهم البرتغاليين واحتلالهم لسبته، بالمغرب الأقصى، في 14 من أغسطس عام 1415م.

ويعد تاريخ هذا الاحتلال مؤشراً لبدء مرحلة هامة في العلاقات الدولية بالنسبة للتاريخ الأوروبي والعالم، ودور البرتغاليين المرتبط بالنجاح في الدوران حول القارة، فبعد وصولهم إلى المحيط الهندي سعوا إلى أن يحلوا محل التجار العرب الذين ربطوا شرق أفريقيا بالهند وبقية آسيا. ومعلوم أن البرتغاليين في البداية تمكنوا من السيطرة على نقط محددة في الساحل الغربي والشرقي لأفريقيا. ولكن وصولهم إلى القارة أولاً، وإلى مصدر الذهب ثانياً، والموقع الاستراتيجي على طريق التجارة البحرية ثالثاً، أدى إلى إشعال نار التنافس بينهم وبين الدول الأوروبية حول السيطرة على القارة، وإن لم يكن هذا هو موضوعنا الرئيسي، إلا أن القارة كانت قد مرت بمراحل سيطرة استعمارية متعددة، وهي:

1 ـ مرحلة إقامة النقط لأغراض التجارة، الجزرية منها والساحلية.

2 ـ مرحلة الكشف الجغرافي.

3 ـ مرحلة الاستنزاف العنيف لموارد القارة البشرية والمادية[54].

أما بالنسبة للعلاقات التي هي موضوعنا في هذه الفترة، فقد ضعف التفوق التجاري العربي والنفوذ الإسلامي بسبب السيطرة البرتغالية على طرق التجارة العالمية، والطرق البحرية المؤدية إلى الشرق ومصادر التجارة الشرقية، فانعكس هذا بدوره على خطوط التواصل بين العرب والأفارقة، ومن جراء ذلك تمكن عرب الساحل الشرقي وبمساعدة سلطنة عمان في منتصف القرن الثامن عشر

(54) ر: باسيل ديفستون، لمحات من تاريخ أفريقيا، ترجمة ونشر، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها، (د.ت)، ص85 ـ 86.

الميلادي من مهاجمة البرتغاليين والتخلص منهم والسيطرة ثانية على كل الساحل، لكنهم لم يستطيعوا إعادة مجدهم، لكثرة الطامعين في السلطان وأيضاً خلافات الأمراء فيما بينهم[55].

تزامن التوسع العماني مع السيطرة البريطانية على المحيط الهندي، وحين شعرت عمان بمنافستها التجارية، غير المتكافئة مع بريطانيا، اضطرت إلى التخلي التدريجي عن نفوذها التجاري في الخليج العربي والتركيز على الساحل الأفريقي. وقد تأثر نفوذ السلطنة الزنجبارية أيضاً في الساحل، وذلك بسبب التدخل الألماني في المنطقة من جهة، وعقد الاتفاقيات الثنائية الألمانية البريطانية لاقتسام النفوذ في هذه المنطقة من جهة أخرى، فكان هذا سبباً في تقلّص نفوذ سلطان عمان على الساحل وجزيرة زنجبار وتوابعها في الداخل[56].

وعلى الرغم من ذلك فقد بدأت منذ القرن التاسع عشر الميلادي المؤثرات العربية الإسلامية تنفذ من الساحل الشرقي للقارة إلى منطقة البحيرات الاستوائية، في تنجانيقيا وأوغندا ورواندا وبورندي والكونغو، وهدف هذا النفوذ هو الحصول على العاج والرقيق، وكان عماد هذه التجارة سلطان زنجبار، السلطان سعيد 1806 ـ 1856، والتجار العرب والسواحيليين والهنود. ورافق هذا التوسع إنشاء مراكز تجارية، الهدف منها هو فرض سيطرة سياسية على بعض المناطق من أجل حماية امتيازاتهم التجارية، في المناطق التي وصلوا إليها لاسيما حوض الكونغو وأوجيجي على شواطىء بحيرة تنجانيقيا[57].

ومن أبرز التجار القادمين من زنجبار والذين شاركوا في توسيع النفوذ العربي وتكوين دولة عربية في أعالي الكونغو هو حامد بن جمعة المرجيبي المعروف (بتبو تيب) وخليفته ابنه سيفو، الذي اتخذ من كاسنجو عاصمة له، حيث تمكن المرجيبي من فرض سيطرته على كل المنطقة الواقعة جنوب بحيرة

---

(55) دياب، ص58.

(56) حسن، ص153.

(57) المرجع نفسه، ص154. ه. أ. موانزي، «المبادرات والمقاومة الأفريقية في شرق أفريقيا 1880 ـ 1914»، تاريخ أفريقيا العام، 1990، م7، ص162.

تنجانيقيا، وتمكن من ضم مناطق واسعة من روافد نهر الكونغو، وكان ذلك في عام 1870 حيث أصبح يتمتع بسلطات سياسية واسعة، لاسيما وأنه أخذ يفرض الضرائب ويعين الحكام ويحل مشاكل المواطنين، لكن نفوذه لم يستمر طويلاً وذلك لمنافسة البريطانيين والبلجيك له. فقد أنهى مؤتمر برلين المنعقد عام (1884 ـ 1885) التنافس بين الدولتين المذكورتين معترفاً بسيطرة بلجيكا على هذه البلاد، وبذلك أقرت الحكومة البلجيكية سيفو على إدارة الإقليم، مع استمرار ارتباط علاقاته مع زنجبار لتبادل المصالح، لكن الحكومة البلجيكية قضت على هذه الإدارة في عام 1894[58]. وبذلك قضت على آمال العرب في إنشاء سلطنة عربية في المنطقة تشابه سلطنة زنجبار.

ومما يدل على قوة التأثير العربي وبالذات اللغة العربية هو ما جاء في مقال الكونت جاك دي ليشتر فيلد Jaques de Lichtervelde الصادر عام 1912، حيث أفصح فيه قائلاً أن «الاستراتيجية التي تسمح للسكان المحليين بدرجة محدودة من الإلمام بالفرنسية، والتي ترى أفضلية ذلك على إلمام غير محدود باللغة السواحيلية، فالخيار الأخير سيقدم للسكان المحليين روابط متعددة جداً مع العرب في الشمال، وهو شيء قد يكون خطيراً»[59].

على الرغم من التوغل والهيمنة الاستعمارية في هذه المنطقة لكننا نتلمس بوضوح الوجود العربي وانتشار الإسلام في كينيا وأوغندا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بفضل التجار من زنجبار والسودان[60].

ونتيجة للسيطرة البرتغالية على سواحل القارة فقد انتقل خط التجارة الرئيسي من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى البرتغال أولاً، ثم إلى باقي أقطار غرب أوروبا ثانياً. وانتقلت آثار هذا التحول إلى أواسط بلاد السودان وغربي أفريقيا حيث انتقل جزء كبير من تجار تلك المنطقة تدريجياً من مراكزه

---

(58) شوقي الجمل، تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط2، 1980، ص319 ـ 325.

(59) حران، ص456.

(60) حسن، ص155.

المنتشرة على أطراف الصحراء إلى المناطق الساحلية، في الجنوب والجنوب الغربي، التي يسيطر عليها الأوروبيون. ومن جراء ذلك، انخفض مستوى العلاقات التجارية عبر الصحراء بين العرب والأفارقة وإن لم تصل إلى الصفر نهائياً، ولكن ظل مستوى العلاقات الثقافية والدينية كما هو حتى مطلع القرن العشرين[61].

وأخيراً لا بد من القول إن الدول الاستعمارية طيلة فترة استعمارها للقارة استخدمت القوة والعلم والتبشير الديني لتحريف التاريخ في سبيل توشيه الروابط التاريخية الإيجابية بين العرب والأفارقة، ومنه إشاعة الأباطيل التاريخية بأن العرب هم تجار الرقيق الوحيدون في العالم وإن صلتهم بأفريقيا هي صلة استرقاق من دون الإشارة من بعيد أو قريب إلى النشاط الفكري والتراث الحضاري، الذي تكون على الأرض الأفريقية، بسبب الاحتكاك بين الجنسين، وإلى مساهمة العلماء الأفارقة في الحضارة الإسلامية العربية. ومن أجل تأمين الهيمنة الكاملة عملت الدول الاستعمارية على فرض لغتها وثقافتها على الأفارقة جميعاً، مع وضع عدد من الإجراءات الإدارية للحد من حركة التجار العرب في القارة كل في بلده.

وقبل أن نختتم بحثنا لا بد من الإشارة إلى أن هناك محاولات عديدة يقودها مؤرخون ومفكرون غربيون وبلا تبريرات منطقية، وجلها تصب في محاولات ترسيخ فكرة الفصل بين شمالي القارة الأفريقية وجنوبها بل وإبعادها عن الاتصال بالمحيط العربي، من خلال استعمال العديد من المصطلحات مثل أفريقيا جنوب الصحراء وأفريقيا شمال الصحراء، وعند الغوص في هذه المصطلحات لغرض معرفة مبررات وجدود هذه التسميات سيتبين لنا عدم اتفاق مطلقيها على دقة حدود تسمياتهم لها، وعدم وجود مبرر منطقي أيضاً، وسنجد مبررها الرئيسي يدور حول العمل على تفتيت وحدة قارة أفريقيا العضوية وللتفريق بين العرب والأفارقة تارة على أساس (مسلم/ غير مسلم)، وتارة على

(61) المرجع نفسه، ص161.

أسس عرقية (زنوج/ عرب)، (زنوج/ قوقازيين)، (أبيض/ أسود)، (أفارقة/ عرب)، وبكل تأكيد فإنّ هذه المصطلحات لا بد وإن تفعل فعلها النفسي، مع ارتفاع نسبة الأمية في كلا الطرفين، وبالذات الجانب الأفريقي والتي أخذت تظهر في كتابات البعض منهم.

الخاتمة:

وفي الختام نخلص إلى أن الوسائل المهمة التي ارتكزت عليها جذور التواصل العربي الأفريقي هما العلاقات التجارية، والمؤثرات الحضارية. أما بالنسبة لفترة بزوغ الإسلام فقد تزايدت العلاقات عمقاً، بواسطة المؤثرات الحضارية، كانتشار اللغة العربية والدين الإسلامي الحنيف في المنطقة التي أطلقنا عليها أفريقيا ما وراء الصحراء.

أما فترة الاستعمار الأوروبي الحديث للقارة، فقد ترك آثاراً سلبية على التواصل العربي الأفريقي، وذلك بسبب الضعف والانحلال الذي أصاب الدولة العربية من ناحية، والدور الذي لعبه الاستعمار في إضعاف الروابط بين الشعبين العربي والأفريقي خدمة لمصالحه الخاصة، كالهيمنة الكاملة على الطرق البحرية للتجارة العالمية، واستخدام اللغات الأوروبية محل اللغة العربية أو الأفريقية المحلية بحجة الحفاظ على العرف والتقاليد... الخ من ناحية أخرى.

وبسبب تحديات العصر، تصبح دعوة تمتين التواصل بين العرب والأفارقة، بعد أن تعرفنا على مراحله، عن طريق الحوار الإيجابي، أكثر إلحاحاً وجدية، وذلك لضرورات العصر الذي نعيش فيه، عصر التكتلات الإقليمية، وبهذه المناسبة فلا بد لنا ـ نحن المؤرخين ـ أن نبحث عن الحقيقة، من الإشادة بالدور التاريخي والريادي الذي يقوم به الأخ معمر القذافي قائد الثورة الليبية في إدامة هذا التواصل.